روايات إسلامية

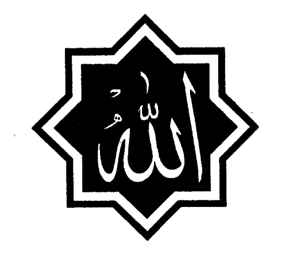
٩

نهاية طاغية

الدكتور نجيب الكيلاني

رقم الإيداع : ٢٤٩٣٠/ ٢٠٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم



لم ينم هشام بن إسماعيل المخزومى ليلته .

القصر الذى يعيش فيه قصر فخم .. تضوع فى جنباته الروائح الشذية ، وحجراته مفروشة بالأثاث الجميل الذى يتناسب مع والى (المدينة) وأميرها الذائع الصيت .. والخدم والعبيد تحت أمره .. وتكفى كلمة واحدة لأن يتحرك رهط كبير كى يلبى طلب الأمير ..

وكانت الفرش الحريرية تحت جنبه تبدو وكأنها أشواك حادة تنغرز فى جسده ، والمصابيح الزيتية التى تضىء الحجرة بدت

هى الأخرى وكأنها عيون فضولية تختلس إليه النظر وتتسلل إلى حنايا نفسه، ودهاليز ضميره..

ووثب هشام من فوق سريره، وقد ظهر الاحتقان فى عينيه، والشحوب على وجهه، وأخذ يطفىء الشموع والمصابيح، كل مصباح بنفخة واحدة أودعها كل ما فى قلبه من قلق وحنق وندم، وحينما ساد الحجرة الظلام ولفها السكون أحس هشام بقليل من الراحة تتسرب إلى داخل نفسه وغمغم بينه وبين نفسه: ما أروع الظلام إنه شىء متجانس غامض.. لا تصطدم العين فيه بشىء.. لا مصابيح مرتعشة، ولا ظلال متراقصة على الحيطان،

ولا ستائر ملونة .. لا شيء .. لا شيء أراه إلا السواد المتجانس الممتد الذى ترتاح إليه نفسى .. أما النور فأنا أحس أنه يعرينى جسدا وروحا .. وتململت زوجته إلى جواره وقالت والنوم يغالب إرادتها .. ويخرج كلماتها متقطعة متداخلة :

– ماذا تفعل يا هشام ؟ ..

فقال محتدا :

– لا شيء .. لا شيء .. نامى يجب أن تنامى ..

فقالت وقد أطارت حدته النوم من عينيها :

– إنك تطفىء النور . وهذا يضايقنى .. أحس

فى الظلام بأنفاسى تحتبس .. عندئذ قاطعها قائلا :

– تستطيعين أن تذهبى إلى حجرة أخرى إن لم يعجبك جو حجرتنا ..

ودهشت زوجته للهجته الجديدة الشاذة ، وقالت لنفسها لابد أنه مرهق .. إنه طول اليوم فى عمل مستمر ، ينظر فى القضايا ، ويضرب الخارجين على القانون ، والأدهى من ذلك الخصوم السياسيين لبنى أمية ، وخاصة أهل البيت .. إنهم دائما مصدر متاعب منذ أن استشهد الحسين بن على بسيوف يزيد .. لست أدرى ما الذى أتى بنا إلى هنا ؛ أرض المتاعب والثورة ، والانقضاض على حكم بنى أمية ..

ليت الخليفة قد ولى هشاما فى مكان آخر غير المدينة .. لكن ماذا يجدى القول ، وقد انتهى الأمر ؟ وها هو قد مر عليه وقت طويل .. حتى مات الخليفة منذ أيام قليلة ، وتولى الخلافة بعده ابنه الوليد بن عبد الملك ، وليس من المنتظر أن يحدث أدنى تغيير .. أى أننا سنبقى هنا حيث المتاعب والانقضاضات السياسية ، وحيث يوجد على زين العابدين ابن الشهيد الحسين .. ذلك الذى يستمتع بسلطان أكبر من سلطان زوجى .. والذى يتعرض لشتى صنوف القسوة والإيذاء من هشام دون أن يتحول عن رأيه فى بنى أمية ، أو يهادن فى عدائه السياسى .. إن زين العابدين رغم صلاحه وتقواه .. أساس

المتاعب .. وتوقفت الزوجة عن التفكير حين قال زوجها هشام :

- هيه .. ماذا قلت ؟ أتبقين فى الظلام ؟

- مادمت تحب الظلام فأنا أحبه مثلك ..

- كما تشائين ..

وسكت ..

حاولت أن تجره إلى المرح لكنه لم يستجب ، ودفعها عنه فى رفق متعللا بأنه يريد أن ينام فرأسه نهب للصداع ، وجسده منهك والنوم عزيز المنال ، فقالت زوجته وهى تبتعد عنه :

- يبدو أنك مازلت متألما لموت الخليفة ..

وانطلقت منه فجأة ضحكة ساخرة وقال :

– ليمت الخليفة أو يبق .. فالأمر بالنسبة لى سيان .. إننا لا نفكر فى الخلافة إلا بالقدر الذى يهمنا .. بالمشاكل التى تربطنا بها .. أنا لا أفكر فى الخلافة إلا من خلال عملى واليا للمدينة .. من خلال وضعى الشائك ، وماضىٍّ الملىء بالحوادث والصراع الدامى ..

ولم تفهم تماما ماذا يقصد زوجها ، كانت كلماته غريبة تنبعث منها رائحة اليأس والخوف ، وتحمل فى ثناياها بوادر الإشفاق من المستقبل، وما يطويه من أسرار ومفاجآت ..

لكن زوجته– على الرغم من الحيرة والقلق– آثرت أن تصمت ، وتدارى قلقها كى تتيح

الفرصة لزوجها كى ينام بصداع رأسه كى تخف حدته .

ونام هشام مستلقيا على ظهره ، وظلت عيناه مفتوحتين إلى لا شىء عبر الظلام المتراكم الممتد ، وجبينه ينضح بالعرق ، وأنفاسه تتلاحق فى حشرجة مسموعة ..

لم يسكب الظلام الهدوء على نفسه كما توهم ، ولم يزرع فى قلبه السكينة والأمن ، بل أخذ يطبق على صدره ، ويوشك أن يكتم أنفاسه حتى خيل إليه أنه فى شبه غيبوبة ، ومن خلال قلقه الرهيب ورأسه المصدعة وأفكاره المتلاحقة المضنية .. بدت له أشباح الماضى التى يجسمها الظلام ويزيدها بشاعة ورهبة ..

آه .. ذلك الأعرابى الذى جاء إليه وقال له يا هشام يا ابن إسماعيل المخزومى أنت ظالم .. لم يحاول أن يسأله عن سر تهجمه عليه .. بل المرأة التى اعترضته فى المسجد ذات يوم ولم يكن يبدو من وراء لثامها غير عينين تبرقان بالثورة .. وصاحت فى وجهه قائلة :

يا هشام يا ابن إسماعيل المخزومى .. أنت ظالم .. فعاملها بقسوة ، وذلك المولى من موالى أهل البيت حين صادفه فى الطريق ، واندفع إليه وكله غيظ وحنق ، وصرخ فى وجهه : أتؤذى أهل البيت .. أهل الرسول وعلى مقربة منك قبر الرسول .. يا هشام يا ابن

إسماعيل المخزومى .. أنت ظالم .. ظالم ..
ولن ينفعك بنو أمية حين تقف أمام الله ..

وعلى زين العابدين .. لكم تعرض له هشام بالإيذاء ، واعترض طريقه ، وهاجمه فى عنف بالغ لا هوادة فيه .. حتى ضج الناس بالشكوى واستجاروا ، ولا مجير . والدماء التى سالت باسم أمن الخلافة .. وهدوء بال الناس وأولئك الذين رسفوا فى الأغلال باسم الخليفة .. باسم الدين ..

وجوه كثيرة كانت تتلاحق فى الظلام ، كلها حقد مغلوب .. وعيون كثيرة كانت تبرق فى الظلام كلها صيحات وصرخات .. وينابيع

تتفجر بالدماء البريئة والآثمة .. وخطب نارية متوعدة من فوق المنبر ..

تماما مثلما يفعل الحجاج بن يوسف فى العرق .. الظلام ملىء بشتى الصور .. والأشباح .. والضحايا ..

ووثب هشام من فوق سريره مرة أخرى مذعورا ..

ولم يتمالك نفسه ، أو يضبط أعصابه المتوترة فانكفأ على وجهه ، واصطدمت جبهته بصيوان كبير على ميمنة السرير فشجت رأسه ، وسال دمه على وجهه ساخنا دافئا ..

وصرخت زوجته مرتاعة :

- ماذا جرى لك يا هشام ؟

- لا شيء .

وأقبل بعض الخدم بالباب حينما تناهت إلى أسماعهم أصوات الضجيج وصرخة السيدة زوجة الأمير هشام .

وصاح هشام بصوت أجش حاول أن يكون صارما لا أثر للخوف أو الارتعاش فيه؟ .

- أضيئوا الأنوار ..

وفي دقائق قليلة كانت الحجرة هادئة ساكنة يغمرها الضوء ، وهشام مضطجع على سريره معصوب الرأس وقطرات من الدم الأحمر تترك أثرها على الضمادة البيضاء وزوجته تجلس إلى جواره تكتم انزعاجها ووجلها ، وبالرغم من ذلك لم تستطع أن تخفى الحيرة والقلق

المرتسمين فى نظراتها الخائفة، وتعبيرات وجهها الذى ساده الشحوب .

وبعد فترة صمت طويلة قالت والخوف يكاد يعقد لسانها :

– إنك تخفى عنى شيئا يا هشام ..

– هذا حق ..

– أتسخر منى يا زوجى الحبيب ؟

– لا أسخر ولكنها الحقيقة المرة يا زوجتى ..

– ماذا تعنى ؟

فأجابها بصوت تعروه بحة تعسة :

– جاءنى صديق قديم من دمشق اليوم خفية دون أن يشعر به أحد، وحمل إلىّ أنباء أزعجتنى ..

- خيرا إن شاء الله يا هشام .

- لم أشم فيما قال خيرا ، بل ضياعا وحسرة .

- أفصح فقد آلمتنى ..

- هناك نية لعزلى من الولاية ..

فقالت مقاطعة :

- وتوليتك فى مكان آخر ؟

فقال يائسا :

- كلا .. إن الخليفة الجديد الوليد بن عبد الملك سوف يعزلنى نهائيا ، ولن يولينى فى مكان آخر .. يبدو أنه سوف يغير السياسة التى درج عليها أبوه نحو أهل البيت ، ونحو على زين العابدين ابن الحسين بالذات ..

وأطرقت زوجته صامتة ، بينما استطرد هو فى حديثه :

– بعد أن كنا كل شىء فقدنا كل شىء .

ثم أجهش بالبكاء ..

وأجهشت معه زوجته– هى الأخرى بالبكاء .

وقالت الزوجة وهى تحاول أن تتماسك :

– لا أريدك أن تبكى ..

– صدقت .. لا تريد المرأة أن ترى دموع زوجها ..

واستأنفت حديثها :

– لا ينسى لك بنو أمية معونتك لهم لقد كنت سيفا يحمى سلطانهم ، ويسوق الناس إلى

طاعتهم ، والقضاء على كل ثورة تنطلق ضد حكمهم ..

فقال وهو يجفف دموعه :

-هذا صحيح .. لكن مما يحزنني أنني كنت أداة غاشمة في يدهم .. أسلك أي سبيل ، بل أبشع السبل للقضاء على مناوئيهم ، وأجتلب سخط الناس في سبيل رضاهم ، لقد أخذوني لحما وعظما ، وتركوني ..

خسرتهم وخسرت الناس .. لم أنل شيئا غير سخط الخالق والخليقة .. لو كنت عادلا شفوقا بالناس لخسرت فقط بني أمية ، وبقي لي الرصيد الكبير .. الرصيد الذي لا ينفد ، رضى الله ورضى الناس .. كنت بالأمس حذاء جديدا

فى قدم الخليفة القديم يدوس به أعناق المعارضين والثائرين .. أما اليوم فحذاء قديم مرقع يرمى به فى الخرائب .. فانتصبت زوجته واقفة وقالت محتدة :

– لا تقل هذا الكلام .. إنك أكبر من ذلك بكثير .. والحكم والحكام فى كفة القدر .. بالأمس خليفة وغدا خليفة جديد .. لا أحد يرى ما تأتى به المقادير .

فغمغم بصوت جريح :

– أجل ، لا أحد يدرى ما تأتى به المقادير ..

وتناهى إلى أسماعهما من بعيد صوت المؤذن يدعو الناس إلى صلاة الفجر :

(الله أكبر ... الله أكبر) .

وكان الصوت نديا آخذا ، فيه روعة الحب ، وفيض التقوى ، وندى الإيمان خاصة تصل إلى القلب مع الأذن ، تذكر الإنسان بأشياء كثيرة مختلطة غامضة ، لكن فى غموضها شوق لذيذ عجيب ، أشياء مثل الحياة والموت والقبر والنعيم والضراعة ، أشياء كثيرة .. كثيرة جدا .. لها نكهة خاصة يدركها أكثر ما يدركها المحزونون والخطاة والذين يوشكون أن يودعوا الحياة ..

وارتخت جفون هشام على الرغم منه ..

ودارت رأسه وخيل إليه أن الحجرة تدور معه ، وأن الشموع والمصابيح المضاءة هى

الأخرى تميل وتنحنى ، ثم تستقيم من جديد وأغفى ساعة أو بعض ساعة .

وحينما فتح عينيه همس فى إشفاق :

- خير إن شاء الله . لقد رأيت فى منامى رؤيا عجيبة .. يبدو أن الأمر ليس بسيطا ، ولكن هناك أشياء أخرى ..

وتنهد هشام فى أسى ، وكانت تنهداته تطفح بمزيد من الحزن والخوف ، وشعر أنه أصبح شيئا آخر غير ما يراه الناس ، إنه فى ثوب أمير عالى الشأن وحوله كل مظاهر المجد والعظمة ، لكن حقيقته تخالف ذلك تمام المخالفة ، إنه أمام نفسه إنسان صغير .. ضئيل .. مرتجف .. حياته كلها مرتبطة بخيط واه .. خيط الإمارة ..

وعندما ينقطع هذا الخيط فسوف يهوى من حالق .. ويرتطم جسده الثقيل وعظامه بالأرض الصلبة فتصرعه ، أو تهشم عظامه وتتركه إنسانا ضعيفا تعسا يستدر العطف ويستجلب الرثاء ..

وقالت زوجت :

– فيم تنهدك يا هشام ؟

فقال يائسا :

– ألا تعلمين ؟

– أعلم أن الأمر بيد الله لا بيد الخليفة ..

– كلنا يعلم ذلك وليس هذا بمانع يا عزيزتى ..

– هذا ضعف الإيمان يا هشام ..

– بل تستطيعين أن تقولى : أنى أخطأت فى

حق البشر .. ويجب أن أخاف الخليفة وأخاف الله .. والإيمان فى هذه الظروف هو إيمان الذى يوقن بالشر يأتيه ويظل على نار الانتظار .. ولهذا تعذبنى الذكريات وتدور فى نفسى الهواجس .. والحقيقة يا زوجتى أن خوفى قد تضاعف بصورة بشعة ، لا لخبر أتانى ، بل بسبب رؤيا رأيتها هذه الساعة وأنا نائم .. أتدرين ما هذه الرؤيا ؟ إنها مخيفة .. مخيفة جدا لو خضت معركة وتعرضت للموت كان إشفاقى يضارع حالتى وأنا أفيق من نومى ..

وقالت زوجة هشام وقد فاض بها الضيق وانتقلت إليها عدوى الخوف :

– قل ما رأيت يا هشام .. قل حتى تخفف

عن نفسك بعض ما أصابها من قلق واضطراب ، ومن يدرى ؟ قد تكون هذه الرؤيا فاتحة خير ، وقد أستطيع أن أفسرها لك تفسيرا مريحا ..

– لا أظن ذلك ، إنها فى غاية الوضوح ..

– ويحك يا هشام .. إنك تعذبنى وأنا أحاول جاهدة أن أصرفك عن هذا التفكير القاتل ، ولكنك تتمادى فى تعذيب نفسك .. ماذا أقول أكثر مما قلت لك يا عزيزى .. لترو لى رؤياك ، فالشمس أشرقت ، وعليك أن تبادر بالذهاب إلى مقر حكمك ، ولعل الله يكتب لك الخلاص ويهبك التوفيق والسداد .

وأحنى هشام رأسه وأسند خده على قبضة يده اليمنى ، ثم غاب لحظات فى تفكير عميق ..

وبعدئذ رفع رأسه متوجها ببصره إلى سقف الحجرة شارد النظرات كاسف الوجه ، وعلى سيمائه سطور ألم ناطق ، تثير الإشفاق أكثر مما تثير الشماتة وتكلم هشام وزوجته كلها آذان صاغية لما يقول :

– أجل يا عزيزتي .. رأيت كأنني فى قصر فخم .. تحيطه الحجاب والحراس .. تتراءى حوله وفى أبهائه الفاتنة شتى ألوان النعيم والثراء والسلطان ، وكنت جالسا على أريكة عالية ، أو منبر .. لا أذكره تماما ، ولكنى أثق تماما أن المنصة التى اقتعدتها كانت ملوثة بالأوحال ، ويدى هى الأخرى فيها شيء يشبه الروث ، وكلما حاولت أن أنظفها عادت كما كانت ..

ولا أدرى لماذا كان يحدث ذلك ..
واستسلمت فى النهاية لهذا الوضع الذى يثير
التقزز ويبعث على الضيق حتى طاب لى
المجلس الذى يعلو هامات من أمامى ،
ورضيت بما أنا فيه على غضاضة .. شىء
مزعج يا زوجتى .. أليس كذلك ؟ لكن لأكمل
حديثى فأنا أشعر بضيقك وتبرمك من أمرى ..
وتلفت حولى يا عزيزتى .. وصفقت فى
عنف .. وأحسست بمراجل الغضب تتفجر
فى قلبى الثائر الحانق : أين العبد الأعجمى ،
لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه .. ولم أكد
أنهى حديثى حتى لمحت العبد الأعجمى يأتى

مهرولا حاملا فى يده الكأس السوداء ، وفى يسراه وعاء كبير يمتلىء بسائل أسود ..

وكان العبد يرتعد ، وعلى شفتيه ابتسامة مرتجفة ، ابتسامة أعرفها تماما عند أولئك العبيد الذين يطيعون الأمر دائما ، لكنهم يخالفونه تمام المخالفة بضمائرهم وقلوبهم .. وتفحصت ابتسامته المرتجفة ونظراته الزائغة الخائفة .. وزحفت ببصرى إلى الكأس السوداء ، والسائل الأسود ، لكنى طربت كثيرا حينما لمحت سوطا معلقا فى حزام حول وسطه فوثبت فوق الكرسى واختطفت السوط وأهويت به فى تشف عجيب .. ولذة شاذة .. على وجه ذلك الأعجمى وجسده .. كان يصر على أسنانه من

الألم .. وكانت ملامحه تنقبض وتنبسط مع كل ضربة .. غير أن الابتسامة المرتجفة بقيت كما هى دون تبديل أو تغيير .. ولم تأخذنى به شفقة ، ولم يوقف قسوتى رحمة . ولم أكد أنتهى من عقابى له وأعود إلى المنصة الملطخة بالوحل حتى وجدت ذلك العبد يصعد درجتين ثم ينحنى أمامى فى خشوع وتذلل ويقول :

- مولاى الأمير .. الكأس السوداء .. والخمر السوداء .. والسوط .. الثلاثة معك يا مولاى العظيم .

الابتسامة المرتجفة لم تزل فوق شفتيه تتلوى مثل الثعبان . وأحسست بكره شديد لابتسامته تلك ولخشوعه وتذلله .. فصرخت فيه :

لا تبتسم واصلب عودك . وبعد ما فعل ما أمرت به ، قرب الوعاء منى فوجهت إليه نظراتى ثم اختبرته بأصبعى فوجدته سائلا لزجا غليظ القوام .. نتن الرائحة ، تعافه النفس ، ويبعث على التقزز والغثيان فزمجرت فيه :

– حسن .. حسن .. اغرب عن وجهى وضع الوعاء أولا والكأس السوداء إلى جوارى ..

وحول المنصة تراءى لى خلق كثير .

كانت وجوههم متشابهة فى ملامحها وسمرتها ، ونظراتهم جميعا مصوّبة إلى .. وكأنها سهام ترشقنى ، والجفون منتفخة تجحظ منها عيون محترقة بالعذاب . وقد ضرب الجند حولهم ستارا يمنعهم من الإفلات

ويرغمونهم بالقهر والإرهاب على البقاء فى الساحة الواسعة .. ومن بعيد لمحت مئذنة من نور كعمود ضخم ضارب بين السماء والأرض. فلوى الناس رءوسهم صوب النور المتوهج عند المكان الذى دفن فيه الرسول .. وحاولوا أن يندفعوا إليه فى شوق مجنون ، لكن السياج المنيع الذى أقامه الجند حولهم قد حد من انطلاقهم ، وعاق انفلاتهم فبقوا فى أماكنهم تنهمر منهم الدموع ويشقيهم الحرمان .. وبانت الثورة والحقد فى عينى رجل قريب من المنصة وامرأة تقف إلى يساره .. فأمرت الجند فجروهما إلىّ جرا .. وصيحات المرأة وتوسلاتها تتعالى وتطغى على ما عداها من

الأصوات وملأت الكأس السوداء من السائل الأسود وقلت للرجل :

- اشرب .. (لابد أن تشرب) ...

ولما تعزز وأبى ، أمسك به الجند وجرعوه الكأس رغم أنفه .. كان يتلوى ويحاول أن يفلت لكن هيهات .. ثم دفعته بيدى بعيدا وأنا أسوقه بالسوط وجنودى يفعلون مثلما أفعل .. ثم ثنيت بالمرأة وفعلت بها ما فعلت بالرجل .. وهكذا أخذت أمواج الناس تتدافع نحوى .. منهم من يأتى طائعا مقهورا دون جهد . ومنهم من يسوقه الجند سوقا إلى فأسقيهم من الكأس السوداء وأضربهم بالسوط ضرب غرائب الإبل .. كل ذلك والمئذنة المضيئة لدى قبر

الرسول تزداد إشراقا وروعة ، والناس يزدادون تلهفا وتحرقا إليها ، والجند يزودونهم عنها كلما أشرت إليها ..

ولمحت من بعيد رجلا يقدم عليَّ فى خطوات هادئة وقور .. فوق رأسه تاج يشع كما تشع المئذنة التى تتراءى من بعيد واقترب الرجل منى ، وملأتنى الدهشة وأنا أراه يخطر فى شموخ وكبرياء ، لا تبدو عليه أثارة من خوف أو أثارة من إحجام . الابتسامة التى على ثغره نابضة صافية ، والنظرات التى تنطلق من عينيه وادعة رائقة . والناس يرمقونه ويحيطون به من كل جانب ، ورأيت نظراتهم تفيض بالحنين نحوه ، لم يكن واضحا لدى من هو ، فرأيتنى أصرخ

طالبا العبد الأعجمى فيأتى مهرولا ، والابتسامة المرتجفة على ثغره من جديد ، فقلت له :

– أيها الوقح .. من هذا الرجل ؟ .

– الجميع يعرفونه يا مولاى ..

فقلت له وأنا أهوى بالسوط على وجهه :

– قلت لك من هو أيها الوغد ..؟

– هذا زين العابدين بن الحسين يا سيدى الأمير ..

فهتفت مغتاظا :

– إلىَّ به فى الحال ، سوقوه إلى دون شفقة .. إنه يناهض بنى أمية ، ويعارض سياستهم ..

وملأت الكأس بالشراب الأسود اللزج حتى فاض على يدى منه شيء ، فاختلطت الأوحال

بالشراب وتكون منهما خليط منفر وكان زين العابدين قد أقبل ولم يخالط حركاته ارتباك ، أو يبدو على وجهه بادرة من ذعر ، ومددت إليه يدى بالكأس وقلت له :

– اشرب .. وسوف تشرب هذا الكأس مرتين أو ثلاثا ..

فتناول الكأس منى دون انفعال لم أر غير شفتيه تتمتمان بصوت خفيض :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ ..

وغمرتنى الدهشة وأنا أرى الكأس الأسود يتحول فى يده إلى كأس بللورى شفاف ، مضىء كما تضىء العمامة فوق رأسه ، تلك

العمامة التى وددت أن أطفئها بضربة من قبضة يدى الملطخة بالأوحال ، واستحال السائل الأسود إلى مادة صافية لا أثر للأوشاب أو التلويث فبها وتجرعها زين العابدين باسما وهو يقول :

– طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس .

ولم أفهم معنى لكلماته ، وأهويت عليه بالسوط كما فعلت مع أفراد سبقوه ، وكان زين العابدين يمضى فى طريقه والناس تحنو عليه ، وتخشع له بنظراتها الحانية ، وهو لا يتأوه أو يتألم تحت وطأة السياط ، وكأنى أضرب فى قطعة من الصخر ، وعلى الرغم من هذا فقد تعالى ضجيج الناس وتكاثرت احتجاجاتهم ،

ولم نجد صرخات أو تهديد الجنود لهم ، وأخذ زين العابدين يبتعد رويدا رويدا ، وأخذت أزاول المهمة العجيبة التى جلست من أجلها .. وانتصف النهار أو كاد يا زوجتى العزيزة أو هكذا خيل إلى .. وأحسست بملل شديد وكرب نفسى ، وفجأة رعدت السماء وانقض القصر الشامخ الذى أجلس أمامه وانهارت أعمدته ، وتلفت مأخوذا يمنة ويسرة ، والحيرة قد سطت على كل منافذ الفكر ، ثم نظرت من جديد إلى الجموع الواقفة ، وإلى سياج الجند الذى يمنعهم من الهروب أو الانطلاق .

ورأيت العبد الأعجمى يقبل وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة .. أجل .. ابتسامة ساخرة هذه

المرة .. ولم يكن خائفا أو متذللا . بل أقبل فى ثقة وشجاعة يحسد عليها ، ثم انتزع السوط من يدى ، وحمل الوعاء الأسود بشرابه وكأسه إلى مكان قريب .. أشار للناس بيده فتدفقوا عليه من كل فج ، وهم يرسلون صيحات تصم الآذان ، وفى يد كل واحد منهم كأس مثل الكأس التى كانت معى ، وملئوا كئوسهم ثم اتجهوا نحوى .. وبينهم زين العابدين بن الحسين .. فى نفس الوقت هتفت بالعبد الأعجمى كى يقبل علىَّ ، لكنه قهقه ساخرا وأتانى بكأسه ثم ضغط بأصابعه الغليظة على وجهى وبين فكىَّ . حتى أرغمنى على فتح فكى وهو يقول :

- اشرب .. نفس الكأس ..

فدفعت الكأس بيدى وأنا أتوعده ، ولكنه تناول سوطه وهوى على وجهى فى قسوة مؤلمة ترنحت لها وفقدت السيطرة على أعصابى وقوتى ، ووجدتنى مستسلما أشرب الكأس ويا لها من كأس .. كانت لزجة .. نتنة .. مرة المذاق ، أحاول أن أتقيأها فلا أستطيع . وقال العبد والشرر يتطاير من عينيه وكأنهما عينا مارد جبار :

– لا تجزع .. ماذا ستفعل لو علمت أنك ستشرب آلاف الكؤوس ..؟

– آلاف الكئوس !..؟

– أجل .. انظر إلى هذا الحشد الحاشد وانظر الكئوس التى معهم .. سوف تشربها جميعا ..

– سوف تنفجر أمعائى ..

– ولمَ لمْ تفكر فى أمعاء الآخرين من قبل ..

– لأني .. لأني ..

– لأنك أناني .. حقير .. يا هشام يا ابن إسماعيل المخزومى ..

ودارت الكئوس على ثغرى ، تأتينى ملأى ثم تشيح عنى فارغة ، والسياط تنهال على جسدى ووجهى لا حصر لها . ومن بعيد لمحته قادما فارتعدت فرائصى . وخارت قواى كان ذلك هو زين العابدين بن الحسين فقلت فى نفسى (ويحى منه) سوف يذيقنى هوانا ما بعده هوان .. لكنى فوجئت به يأتينى ولا كأس في يده ، ونفس الابتسامة الرائقة الصافية تتألق على

ثغره وفى نظراته.. ووجدت الناس من ورائه بلا كئوس .. وحينما اقترب منى مسح على رأسى ، وهم أن يقول كلاما ! .. لكننى أحسست بك تتقلبين بجوارى على فراش النوم ، ثم تقع يدك على رأسى الملتهب الذى يغمره العرق فأصحو من نومى ، ويذوب وهم ذلك الحلم الرهيب كما يذوب الثلج تحت وهج الشمس ، كان الألم الذى يحز فى نفسى ، والحزن الذى غمر فؤادى ما برحا يهزان كيانى هزا عنيفا .. وصور الرؤيا الرهيبة تمر بذاكرتى المتعبة المكدودة ..

ولم يجد هشام فى نفسه رغبة أو دافعا يدفعه للذهاب إلى مقر الإمارة ، كانت أفكاره السوداء توهن من عزيمته ، وتشاؤمه الشديد يهد من

نشاطه ، وكيف يذهب وكرسى الإمارة يهتز تحته ، بل يوشك أن يقذف به بعيدا إلى هوة سحيقة .. ولا شك أن شائعة عزله سوف تصل إلى آذان الناس إن عاجلا أوآجلا .. وعندما يطرب الأعداء ويتيه الحاقدون سرورا وشماتة ، وتنتقل همسات الهزء والسخرية من شارع إلى شارع ، ومن قبيلة إلى قبيلة ، ويعرف القاصى والدانى أن هشام بن إسماعيل المخزومى الجبار العتيد أصبح ضعيفا لا عون له ولا سند ، وتمتم هشام فى حيرة :

- ماذا أفعل يا زوجتى ؟

- تذهب إلى مقر حكمك ..

- أكون كمن يسوق نفسه إلى حفرة نار ..

- ولم ؟

- أشعر كأنى دخيل .. لم يعد المكان مكانى .. ويدى خالية من أية سلطة .. ومواجهة الجند والناس فى مركز مزعزع- أمر قاتل ..

فقالت زوجته فى إصرار :

- لم يعزلك الخليفة بعد ..

- هذا حسن .. لكنه أمر مقرر

- إن رجولتك تفرض عليك أن تؤدى واجبك حتى آخر لحظة ..

فقال وهو يطأطىء رأسه آسفا :

- أجل أنا جندى من جنود الخليفة وطاعتى له يجب أن تكون طاعة عمياء .

ومضى هشام فى شوارع (المدينة) يحيط به

موكبه الرسمى كالعادة وعلى الرغم من ذلك فقد كان الموقف كابيا حزينا، الجنود لا يجدون فى أنفسهم أثارة من حماس كى ينطلقوا بجيادهم هنا وهناك ويفسحوا الطريق أمام الأمير والمارة، لم تكن هذه عادتهم. كانوا بالأمس حينما يرون موكب الأمير يدلفون إلى شارع جانبى كى يتجنبوا لقاءه حتى لكأن مجرد رؤيته تثير حفيظتهم وتدفعهم بدافع الخوف، وإذا لم يدلفوا إلى شارع جانبى كانوا يقفون فى خشوع نظراتهم كبيرة وابتسامتهم مصطنعة مرتجفة ترتسم على ثغورهم.. أما اليوم فلا يمر أحد. الناس يمرون فى الطريق وكأن الأمير واحد منهم لا يستوجب خشوعا أو هروبا إلى

طريق آخر ، لمَ لمْ يعودوا يطرقون حياء وخوفا . بل نظراتهم ترتفع إليه لأول مرة فى فضول وشوق ؟! وغمغم هشام بينه وبين نفسه :

« أيها الأغبياء .. الآن ترفعون نظراتكم إلىَّ لتروا كيف هويت من أعلى ؟ كيف لبس وجهى ثوب الكمد والحزن ؟ وكيف احتقنت عيناى من طول السهر ؟ .. حملقوا فىَّ كيف شئتم .. وتشفوا بمنظر الأمير الحزين الذى يوشك أن ينتهى إلى لا شىء .. لا أنكر أنكم مساكين وأننى ظلمتكم ، لكن شماتتكم حمق وغدر وغباء . إن شماتتكم تمسخ إنسانيتى وتجعلنى أكرهكم ، لا من أجل بنى أمية هذه المرة ، ولكن من أجل نفسى .. من أجل هزيمتى التى

تتلذذون بمشاهدتها .. إن العزل كارثتى الكبرى .. أما الشماتة فهى شىء فوق الكارثة الكبرى .. الموت أهون منها .. »

وبرقت فى ذهن هشام خاطرة .. يا لها من حلم منعش جميل .. لماذا لا تكون شائعة العزل مختلقة من أساسها ؟ . ما أجمله من يوم ذلك الذى أثبت فيه مركزى ، وتعود مكانتى إلى احترامها ووقارها ويبقى هشام بن إسماعيل المخزومى واليا على المدينة رغم أنف الحاسدين والحاقدين والكائدين ! لكن هل سيعود مرة أخرى إلى البطش والإرهاب وإرغام الناس على الخضوع له ، والتسبيح بعدله حتى ولو ملأ ربوع المدينة جورا وعسفا ؟ لا . لا . لو

حدث ما يحلم به فعلا فلسوف يخشى الله ويتقيه وينصف عباده ، ويحظى بمحبة الخلق والخالق . إن تجربته الماضية كانت درسا عميقا يجب أن يحفر فى ذهنه حفرا لا يمحوه سلطان جديد أو انتصار طارىء .

وارتاح هشام لهذا الخاطر ، وانجابت عن قلبه غشاوة الألم والحزن إلى حين ، وشعر بنسمة رطبة منعشة تلامس جبهته ، فرفع رأسه ليستنشق منها ، فوقع بصره على مئذنة قبر الرسول ، فتذكر على الفور تلك الرؤيا الرهيبة وتذكر المئذنة النورانية التى تصل السماء بالأرض ، والتى كانت تجذب إليها الناس جذبا ، فيديرون إليها رءوسهم ويشرئبون إليها

بأعناقهم ونظراتهم المشتاقة ، وسرعان ما عاوده ما كان يكابده بالأمس من هم وقلق وأحزان .. وبلغ الموكب دار الإمارة ، واتخذ هشام مجلسه مثلما كان يفعل كل يوم ، والصمت يسود المكان ، ويلقى عليه جوا كئيبا ، يوحى بالكثير من الحيرة والقلق ، وبعد فترة قصيرة أراد هشام أن يقطع حبل الصمت ليبدد ما غشى المجلس من كآبة ووحشة فصاح بكاتبه :

- هل أعطيت الصدقات لمستحقيها ؟
- كلا يا سيدى الأمير ..
- والجند هل أخذوا مرتباتهم ؟
- كلا سيدى الأمير ..
- إذن لم تفعلوا شيئا ..؟

– أجل يا مولاى ..

فقام هشام والقلق يسيطر عليه :

– ما معنى ذلك ؟

فأجاب الكاتب مرتجفا :

– وصلت رسالة من الخليفة الجديد أمرت بوقف كل شىء ..

وكانت لهذه الكلمات القليلة وقع الصاعقة على هشام ، فانتابه مزيد من الخوف ، وتوجس شرا ، لكنه تمالك أعصابه وقال :

– متى وصلت رسالة الخليفة ؟

– مساء أمس ..

هذا بداية الشر ، والسطر الأول من المأساة التى تنتظر هشام ، هل تصدق شكوكه وتتأكد

ظنونه وتصبح تلك الرؤيا البشعة فألا سيئا كما حدثته نفسه .

– ألم تصل رسائل أخرى ؟

– كلا يا سيدى الأمير ، ولكنه ..

فقاطعه متلهفا :

– لكن ماذا ؟

– فى ذيل الرسالة يقولون انتظروا أوامر أخرى .

ودهم هشاما حنق شديد ، كان على وشك أن ينفجر ، وتمنى أن يسحب سيفه وينقض على هؤلاء الرجال القائمين حوله ، ويفصل رءوسهم عن أجسادهم ، ويتملى بمنظر الدم المراق . خواطر شيطانية حمراء كانت تحتل رأسه ،

وتحرضه على التدمير والقتل والانتقام الرهيب ، لكن يده تبدو وكأنها شلاء ، والناس من حوله جامدون متبلدون لا يحسون بشيء ، وهو بائس مسكين لا يدرى ماذا يفعل ، وصرخ هشام فيهم صرخة أزعجتهم ، وملأتهم بالخوف والدهشة :

– اذهبوا من هنا أيها التماثيل الصخرية ..

وتسابقوا إلى الباب ، كل يريد أن ينجو بجلده ، فالشرر يتطاير من عينى الأمير ، ويمينه على مقبض السيف وجبينه ينضح بالعرق ، ونظرات الجنون تطل من محجريه ولم يبق أحد غير عبد أسود ، كان على شفتيه ابتسامة

مرتجفة ، وترك هشام سيفه وسحب سوطه وأهوى به على وجه العبد وهو يقول :

- ما الذى أبقاك يا عبد السوء ؟

وتلوى العبد من الألم ولكنه تحامل على نفسه وقال :

- معذرة يا مولاى .. إنها رسالة من الخليفة ..

وشرد هشام بضع لحظات ثم غمغم :

- أنت العبد الأعجمى الذى رأيته .

فقال العبد وهو فى شبه انحناء :

- كلا يا مولاى .. بل خادمك الأمين .. لست أعجميا ولكن حبشيا ..

- إلى بالرسالة ..

وزاغت نظرات هشام وهو يقرأ السطور، وتداخلت الكلمات واختلطت وبدت الرقعة أمامه وكأنها مصبوغة بلون أسود غير محدود المعالم، كلمة واحدة كانت واضحة وكأنها محفورة فى الرقعة:

(العزل) ...

لقد حم القضاء وعزل هشام وانتهى الأمر ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ولى الأمر من بعده عمر بن عبد العزيز الشاب ذو الخمسة والعشرين ربيعا، والذى تتحدث بمحامده الناس، ويتغنى بسيرته العطرة الرائح والغادى، هل يريد الوليد بن عبد الملك الخليفة الجديد

أن يقول للناس لقد مزقت لكم حجب الظلام ، وأطلعت لكم الفجر ..؟

ورفع هشام رأسه ، ووجد العبد ما زال واقفا أمامه ، والابتسامة المرتجفة قد تحولت إلى ابتسامة ساخرة .. وصرخ مرة أخرى :

- أخرج أيها الوغد .

وخرج العبد ، وتلفت حواليه فلم يجد أحدا ، وهم أن ينادى زوجته ، لكنها فى قصرها ...

وفكر فى الجند .. كلا لم يعودوا جنوده . والخدم ... إنهم تحت سمع وطاعة الوالى الجديد .. أصبح طائرا بلا أجنحة ..

ما الذى يبقيه هنا ؟

هل ينتظر حتى يأتى موكب عمر بن عبد العزيز الوالى الجديد ؟

أيظل هكذا حتى يأتى الجنود بأمر الخليفة ويقذفون به ذليلا مقهورا ؟

لقد كان يتوقع هذه النهاية السوداء منذ سرت إليه الشائعات ، لكن .. لكن هذا أمر فظيع ..

وتحامل هشام على نفسه ، واتجه صوب الباب ، وأخذ يجر قدميه جرا ، مخافة أن يتخاذل ويهوى إلى الأرض . إلى التراب .. ومناظر البيوت والحوانيت والناس الذين يزحمون الطريق ترتج تحت بصره ، ورأسه ثقيل حتى يكاد يهبط به .. كل شىء فيه ثقيل

حتى اختل توازنه ، وقبل أن يصل إلى بيته سمع مناديا ينادى :

– يا أهل المدينة .. لقد أمر الخليفة بعزل هشام وتولية عمر بن عبد العزيز ..

– يا أهل المدينة .. لقد أمر الخليفة بعزل هشام وتولية عمر بن عبد العزيز ..

– يا أهل المدينة .. إن الخليفة أمر بأن يقف هشام أمام دار مروان بن الحكم ليقتص منه كل من آذاه ، شتمة بشتمة ولعنة بلعنة ، ولطمة بلطمة ..

وسقط قلب هشام ، وكأن الدنيا كلها قد انقضت عليه ..

ليس الأمر عزلا فحسب ، بل سيقف فى

ميدان عام مطأطأ الرأس وسوف يمر عليه أهل المدينة صغيرا وكبيرا ، عظيما ومغمورا ليقتصوا منه ، ويأخذوا بثأرهم ...

يا للمهزلة .. سوف يشرب من نفس الكأس التى سقاهم منها ..

إن الموت أهون من كل ذلك ، وما قيمة الحياة التى يحياها بعد ذلك حيث تؤرقها ذكرى الصفعات والشتائم والبصقات التى تلطخ جبينه ؟

وأسرع هشام إلى بيته وهو فى عجلة من أمره ، وفارقه تعقله ورزانته وأصبح يتصرف كفتى أرعن يريد أن يهرب من مصيره ولا يواجه يوم

النار ، يوم القصاص الرهيب ، وقال وهو يتخبط هنا وهناك :

- هيا يا امرأة يجب أن نهرب حالا .. أمر الخليفة بعزلى والاقتصاص منى ..

وفتحت زوجته فاها دهشة ، وأسقط فى يدها ، وشل ذهنها عن التفكير ، وأخذت تنظر إلى زوجها وهو يجمع حاجاته ويعد العدة للرحيل ، دون أن يعرف لنفسه وجهة ، ويريد أن ينطلق فى بطن الصحراء ولو أدى الأمر إلى أن يموت جوعا وعطشا ، أما هذا الموقف الرهيب فلن يتحمله ، وصرخ هشام بزوجته الواقفة فى جمود وذهول :

- هيا أيتها البلهاء .. ماذا تنتظرين ؟

وتحركت زوجته وأخذت تجمع ما تستطيع جمعه ، وبعد ساعة كان كل شيء معدا للرحيل .

ودار هشام بنظراته الحزينة فى أرجاء القصر المهيب ..

كان يودع الذكريات والأشياء والأيام التى مضت ، وانتزع نفسه انتزاعا من هذا الموقف الشديد ، وهم أن يركب جواده وفجأة وجد رهطا من الجند يحيطونه وصاح قائدهم بصوت أجش :

– إلى أين ؟ ..

– إلى حيث أشاء ..

– كلا يا هشام يا ابن إسماعيل المخزومى ، أمر الخليفة بأن غدا يوم القصاص ..

– لكن ..

– لا كلام .. أوامر الخليفة يجب أن تطاع .. عد إلى قصرك ..

وفى الصباح كان هشام يقف متخاذلا ذاهلا أمام دار مروان بن الحكم ، والآلاف من سكان المدينة يمرون به ويردون إليه صفعة بصفعة ولعنة بلعنة ، وعبد أسود يرفع سوطه ثم يهوى عليه ، وعلى فمه ابتسامة ساخرة ، نفس الكأس السوداء التى سقاها للناس . كأس الظلم . لكن هل يقف الأمر عند هذا الحد ؟ أين زين العابدين بن الحسين ؟ أين أهل البيت ومواليهم ؟ لابد

أنهم سوف يقتلونه ، لطالما أذاقهم الهوان والعذاب .

وانتصف النهار ، ثم أسفر الأصيل ، وعندئذ رأى الناس زين العابدين قد جاء وحوله جمع حافل من مواليه وأهل بيته ، فأوجس هشام خيفة وخيل إليه أن الموت يدنو منه مع كل خطوة يخطوها زين العابدين ، فلما كان أمامه ، واستسلم هشام لليأس ، وبلغت روحه الحلقوم ، قال زين العابدين :

– السلام عليك يا هشام ..

ومد يده يصافحه ، ويهز يده ويمسك بها ، ومد هشام يده ، ثم أسلم نفسه إليه وخفض رأسه وبكى وقال زين العابدين :

– إن كان لك حاجة فأنا قاضيها لك ، وإن كان عليك دين من ولايتك فإنا نقضى عنك دينك ..

فأجهش هشام بالبكاء ..

ثم مضى زين العابدين ، ومضى من خلفه أهله ومواليه ولم ينظر أحد منهم إلى وجه هشام فى شماتة أو يؤذه بكلمة وغمغم زين العابدين وهو يبتعد عنه :

– إنه معزول ، فليست له قوة ، ونحن نعلو ونسمو عن إيذاء الضعفاء .

هكذا كف جميع الناس عن إيذائه بعد ذلك ..

آلاف الخواطر والأفكار والذكريات كانت

تتوارد على ذهن هشام طوال هذه الفترة الرهيبة ، والشمس غابت أو كادت ، والميدان خلا من الناس ، وأصبح هشام وقصته وعهده مجرد ذكرى .. ذكرى تثير السخط والعبرة والرثاء ، وسمع هشام من خلفه صوت قائد الجند وهو يقول بصوت آمر يخلو من الانفعال أو الرحمة ..

– الآن تستطيع أن تذهب حيث شئت ..

وجمد هشام فى مكانه لحظات ، ثم مشى ليأخذ زوجته ويمضى إلى حيث تقذف به الأقدار فى متاهات الألم والأحزان والذكريات المريرة ..

